انتقال مقومات الحضارة العراقية وتأثيراتها في البلدان المجاورة

أ.د. نواله احمد المتولي / جامعة بغداد/ كلية الاداب

حضارة بلاد الرافدين سفر حافل بمنجزات عظيمة حققها العراقيون (السومريون والاكديون ومن تبعهم من البابليون والاشوريون) في مجالات شتى من مجلات العلوم والمعرفة، المعتقدات الدينية والآداب والفنون وغيرها، ومن اهم الشواهد على قدم وأصالة الحضارة العراقية قديماً، هو ان باستطاعة الباحث تتبع مراحل تطورها مرحلة بعد اخرى على مر العصور الزمنية، وقد تجلت معالم تلك الحضارة بفضل الكم الهائل من الوثائق والمدونات والمكتشفات الاثارية المتنوعة، بحيث امكن الباحث من التعرف على مفردات الحياة اليومية الادارية والسياسية والقانونية والاجتماعية وغيرها، وان كان هناك غموض في بعض الجوانب، فضلا عمن ذلك كله فان انتقال مقومات الحضارة العراقية الى البلدان المجاور والأثر الفعال الذي تركته في حضارات الشرق الادنى القديم سيما في مجال الاداب والفنون.

لم تنحصر مقومات الحضارة العراقية ، ومنها الخط المسماري، في بلاد الرافدين فقط، بل ان من المؤكد انها انتقلت الى بلدان الجوار، وان انتقال او انتشار اية تأثيرات حضارية من بلد الى اخر في العصور القديمة استلزم وجود اتصالات مباشرة وغير مباشرة سواء اكانت علاقات تجارية او حملات عسكرية او علاقات سلمية، وهذا ادى بدوره الى فتح الطرق بين بلاد الرافدين والبلدان المجاورة وباتجاهات عدة، كما عمل على تأثير وتأثر مظاهر حضارية بينه وبين تلك البلدان، مثل ايران في الشرق وبلاد الاناضول واليونان في الشمال والشمال الغربي، وبلدان الخليج العربي في الجنوب، وسوريا وفلسطين ومصر في الغرب[1].

لم يتوقف موضوع التأثير والتأثر على جانب واحد من جوانب الحضارة، بل شمل مجالات عدة كالفنون والآداب والتدوين والخط واللغة، ولا يسعنا هنا الحديث عن كل تلك الجوانب، لذا سيقتصر الحديث هنا عن موضوع الاداب والتدوين واللغة،

[1]) باقر، طه، مقدمة في تالريخ الحضارات القديمة، بغداد، 1986، ص

ان انتقال الخط المسماري الى عدد من بلدان الشرق القديم المجاورة، يعد واحدا من الاسهامات التي قدمها العراقيون انذاك، فيه سجلت كثير من الشعوب تاريخ بلدانها، الى جانب ان الخط المسماري قد اوجد رباطا وثيقا بين تلك الشعوب كان من نتائجه انتقال كثير من المفاهيم الأخرى الدينية والأدبية والعلمية، علاوة على ذلك فقد اصبح الخط المسماري وسيلة التدوين الرئيسة للوثائق الدبلوماسية المتبادلة بين عدد من ملوك وأمراء وحكام بلدان الشرق الادنى القديم والبلدان المجاورة للعراق[2].

ففي مجال اللغة والخط، لم يتوقف استخدام اللغة الاكدية والخط المسماري على بلاد الرافدين، بل تعداها الى البلدان المجاورة، فقد اثبتت التنقيبات الاثرية ان اللغة الاكدية استخدمت في بلاد عيلام وسوريا ومصر، فقد اكدت النصوص المسمارية المكتشفة في عيلام، خاصة تلك التي تعود الى اواسط الالف الثالث قبل الميلاد، (ايام سيطرة الدولة الاكدية وسلالة اور الثالثة)، ان عيلام قد استخدمت اللغة الاكدية والخط المسماري في مدوناتها، مما يشير الى اما الى تواجد الاكديين في عيلام، او ان عددا من العيلاميين قد اجادو اللغة الاكدية والخط المسماري، وبالحالتين فهو دليل قاطع على

كما اصبح الخط المسماري في القرن الرابع عشر قبل الميلاد وما بعده، وسيلة التدوين في الوثائق الرسمية المتبادلة بين ملوك وامراء اقطار العالم القديم والشرق الأدنى كما اصبحت اللغة الاكدية اللغة الدبلوماسية بدليل الكشف عن اعداد مكن المراسلات الدبلوماسية، تضمنت رسائل شخصية او ملكية

اثبتت التنقيبات الاثرية التي جرت في عدد من المدن والمواقع الاثرية والممالك في سوريا على استخدام الخط المسماري واللغة الاكدية، مثل مواقع ماري (تل الحريري) وابلا (تل ماردیخ)[3] ومواقع اعالي الفرات والخابور، اذ استخدم الخط المسماري في تدوين المعهدات والرسائل المتبادلة بين تلك الممالك والممالك البابلية والدولة الآشورية فضلا عن ان عددا من النصوص الاقتصادية والأدبية قد كتبت بالخط ذاته، كما عثر في راس شمرة (اوغاريت) على الواح من الطين مكتوبة بالخط المسماري باللغة الكنعانية تضمنت نصوص دينية وأدبية. كما عثرت البعثة الالمانية العاملة في موقع شيخ حمد في اعالي الخابور على اعداد من الرقم الطينية المدونة بالخط المسماري واللغة الاكدية (اللهجة الاشورية) يعود

[2]) علي، فاضل عبد الواحد، من الواح سومر الى التوراة، بغداد، 1989، ص 176

[3]) كشفت البعثة الايطالية التي عملت فيما بين 1964 -1979 في موقع ايبلا الواقعة على بعد 55 كم جنوب غرب مدينة حلب السومرية، على ما يقارب 16500 رقيما طينيا مدونا بالخط المسماري، والرقم المكتشفة كانت محفوظة في غرفة في احد القصور الملكية، وربما كانت مكتبة خاصة بالقصر، اذ وجدت الرقم منضدة فوق بعضها البعض فوق رفوف من الطين كانت ملاصقة لجدار الغرفة. ينظر، اسماعيل، بهيجة خليل، المصدر السابق، ص 237

تاريخها الى منتصف الالف الثاني قبل الميلاد، وهي نصوص ذات مضامين اقتصادية وإدارية لا تختلف كثيرا عن تلد التي عثر عليها في المواقع العراقية من العصر ذاته[4]. ومن المواقع الاخرى في سورية موقع الالاخ (تل عطشانة) اذ عثر فيه على اعداد من الرقم الطينية تعود الى القرن الرابع عشر قبل الميلاد تضمنت معاجم لغوية، في الغالب كانت الغاية منها هو تدريب الكتبة هناك على تعلم اللغة الاكدية.

في منطقة كبدوكيا في اسيا الصغرى، فقد اكدت التنقيبات الاثرية على العثور على مئات النصوص المسمارية المدونة باللغة الاكدية، وأكدت تلك المدونات الكتابية على انتقال الخط المسماري من بلاد اشور وعلى قيام عدد من التجار تأسيس عدد من المستوطنات الاشورية هناك في مطلع الالف الثاني قبل الميلاد، كان من بين اهمها مستعمرة كانيش (كول تبة حاليا)[5]، وبوغازكوي (حاتوشا) وعلي شار (انكوفا) وغيرها، اذ كان التجار الاشوريون يتداولون اللغة الاكدية، اذ اشارت التنقيبات الاثرية على العثور على اكثر من 38 الف رقيم من الطين مكتوبة بالخط المسماري واللهجة الاشورية شملت على رسائل متبادلة بين التجار ووكلائهم وتتعلق بالصفقات التجارية وامور الصيرفة والمعاملات المالية، مثل القروض والضرائب والتهريب وتنظيم القوافل التجارية ووثائق تبحث في الشوؤن القضائية وحل المنازعات وقرارات المحاكم والاحوال الشخصية وغيرها.ان كتابة تلم الوثائق يؤكد على ان عددا كبيرا من التجار ورجال الاعمال في بلاد الاناضول كانوا يجيدون اللغة الاكدية والكتابة بالخط المسماري[6].

انتشر الخط المسماري بين الحوريين والميتانيين في القرنين الرابع عشر والثالث عشر قبل الميلاد، والدليل هو العثور على الالاف الرقم الطينية في موقعي نوزي (يورغان تبة) وتل الفخار (كوروخاني)، وقد كتبت بلخط المسماري وهي ذات مضامين عقود قضائية تخص الزواج والتبني والارث، وعقود اقتصادية وادارية ورسائل رسمية وشخصية[7]. كما اخذ الاورارتيون الخط المسماري من بلاد اشور ايضا

---

[4]) بهيجة ص 237 وما بعدها

[5]) يتالف موقع كول تبة (بقايا مدينة كانيش القديمة) من تل واسع يضم عددا من القصور ومساحات للسكن، وفي منطقة السكن عثر على الارشيفات الخاصة بالمستعمرات الاشورية التجارية، اذ عثر على ما يقرب من 14000 رقيما، تضمنت معلومات عن التجارة الاشورية مع المستعمرات في كانيش والتي كانت تتعلق بالتجارة البرية التي قوامها قوافل الحمير التي تنقل كميات القصدير والمنسوجات وغيرها من بلاد اشور الى كبدوكيا.للمزيد ينظر: ساكز، هاري، عظمة اشور، ترجمة عامر سليمان، بغداد، 1999، ص51 وما بعدها

[6] اسماعيل المصر السابق ص 238

[7]) "الكتابة"، موسوعة حضارة العراق، الجزء الاول، بغداد، 1985، ص 238

خلال القرن التاسع قبل الميلاد ودونوا به لغتهم وغالبا ما كتبوا بالأسلوب المقطعي، اما الميديون فلا يوجد دليل على انهم استخدموا الكتابة المسمارية[8].

اما في مصر فقد تم العثور في العام 1887م عثر، وبطريقة الصدفة، في قرية تل العمارنة في مصرعلى مجموعة من الرقم الطينية تضمنت رسائل مرسلة الى الفرعون المصري امنحوتب الثالث ومن بعده ولده امنحوتب الرابع (المعروف بـ اخناتون) () من الملك الميتاني والملك الحثي وحكام سوريا وفلسطين وجميعها مكتوبة باللغة الاكدية، وهذا يشير الى ان الكتبة المصريين كانوا يجيدون اللغة الاكدية بلهجتيها البابلية والآشورية. وكانوا يكتبون الرسائل الى الملوك الاشوريين باللهجة الاشورية، كما تضمنت تلك الرقم الطينية على جداول تمثل نصوص تعليمية كان الهدف من وراءها تدريب المبتدئين على القراءة والكتابة وإعدادهم ليكونوا كتبة جيدين، كما اشارت المصادر الى ان من بين النصوص التي عثر عليها في تل العمارنة بعض التاليف الادبية التي يقال انها كتبت في بابل وارسلت الى الفرعون المصري، كلان من بينها قصة ادابا ونركال وايرشكيكال[9].

اما في بلاد عيلام فقد انتقلت الكتابة الصورية، وهي اولى واقدم اشكال الكتابة في بلاد الرافدين[10]، الى سوسة عاصمة العيلاميين، فظهر خط صوري مشابه للخط الصوري الذي عرف في النصف الثاني من مرحلة الوركاء في العراق، ورغم تطور الخط في بلاد الرافدين الا ان الخط الصوري في عيلام ظل مستعملا الى العصر الاكدي، أي في حدود منتصف الالف الثالث قبل الميلاد، ثم استبدل بالخط المسماري الذي انتقل من بلاد الرافدين، واستخدموا العلامات الدالة والعلامات الرمزية وكذلك صيغة كتابة الارقام التي ابتكرها العراقيون. عندما سيطر ملوك الدولة الاكدية ، لا سيما نرام سين، على عيلام وضمها الى حكمهم شاع استخدام اللغة الاكدية في العاصمة العيلامية، وقد اشارت التنقيبات الاثرية الى العثور على اجر مكتوب باللغة الاكدية وبالخط المسماري[11].

من الجدير بالذكر ان منطقة عيلام تعد من الناحية الجغرافية امتدادا طبيعيا لسهول الرافدين، وانها ارتبطت ثقافيا وحضاريا بمقومات الحضارة العراقية وكانت جسرا لنقل مفاهيم ومقومات الحضارة الى

[8]) قون زودن، ف، مدخل الى حضارات الشرقالقديم، ترجمة د. فاروق اسماعيل، سورية، 2003، ص 44 وما بعدها

[9]) اسماعيل، بهيجة خليل ، المصدر السابق، ص 239

[10])Pollock, S., Ancient Mesopotamia, Cambridge, 1999, p. 149ff

[11]) اسماعيل، المصدر السابق ص 236

بلدان الشرق القديم. وأكدت كتابات الملك دارا الاول والنص المشهور "بكتابة بهستون" على استخدام الخط المسماري واللغة الاكدية، فضلا عن العثور على اعداد من الرقم الطينية. كما لن مشاهد الاختام الاسطوانية التي عثر عليها في العاصمة العيلامية وعدد من المواقع في ايران اذ بينت تلك المشاهد التشابهة الكبير من حيث الموضوع والاسلوب والكتابات المسمارية التي تحملها، بينها وبين الاختام العراقية القديمة.

شهد القرن التاسع قبل الميلاد انتقال الخط المسماري الى منطقة اورارتو في ارمينية، اذ عثر على مجاميع من الرقم الطينية ذات مواضيع اقتصادية وقضائية وعقود، كما جاءتنا نصوص مدونة بالخط المسماري والخط الارامي يعود تاريخها الى القرا السابع قبل الميلاد، كما اشير الى ان الاغريق الذ ين سكنوا مدينة بابل حاولوا تعلم اللغة البابلية، وادخلوا اولادهم الى المدارس لتعلم اللغة والخط المسماري، اذ عثر على نماذج من النصوص التعليمية المدرسية كتبت بالخط المسماري وباللغتين البابلية والسومرية، وهذا النوع من النصوص هي نصوص لتدريب الطلبة والمبتدئين على الكتابة[12].

ان اهم قنوات انتقال المقومات الحضارية بشكل عام والخط المسماري واللغة الاكدية بشكل خاص هي:

- التجارة والطرق والمستعمرات التجارية:
- الفتوحات والحملات العسكرية والرغبة في السيطرة على مصادر المواد الاولية وضم الاقاليم
- الجزيات والضرائب المفروضة على البلدان المغلوبة
- الزيجات الملكية بين بنات وأخوات الملوك وحكام الاقاليم المجاورة

بذلك يكون الخط المسماري واللغة الاكدية هما الامران الرئيسان اللذان ساعدا على انتشار التراث الثقافي والحضاري العراقي الى اقاليم الشرق الادنى القديم وأقاليم أخرى ومعهما انتقلت الكثير من المعتقدات والمفاهيم الدينية والنتاجات الأدبية فقد وجد ما يشابه عبادة الاله تموز وانتقلت ملحمة كلكامش الى الحوريين والحثيين، ولم يقتصر الامر على الاداب والديانة بل امتد ذلك الى انتقال العلوم والمعارف البابلية، خاصة في مجال علم الفلم والرياضيات والهندسة والجبر.

[12]) اسماعيل، المصدر السابلق، 240

لدينا من النصوص المسمارية ما يشير الى العلاقات المتبادلة بين الأقاليم سواء السياسية منها او التجارية او الدبلومسية، اذ زودتنا نصوص سلالة اور الثالثة باسماء عدد من الشخصيات منهم حكام وشخصيات ادارية من اقاليم عدة خارج بلاد الرافدين ومن جهات عدة في الشرق والغرب، منهم ذكر "رجل ماري" و"رجل سوسة" و "رجل خورتي" و" رجل ايبلا" و "رجل اوربيلوم" واخرون، وان دل ذلك على شيء فانما يدل على وجود العلاقات المتبادلة بين هذه الاقاليم التي كانت نتيجة انتقال الخط المسمارية واللغة الاكدية، والمقومات الحضارية الاخرى التي ساعدت على وجود التفاهم السياسي والحضاري بين تلك الاقاليم[13].

[13])Goetze, A., "Four Ur Dynasty Tablets Mentioning Foreigners", JCS-7, 1953, p. 103ff